الموروث والوافد في الثقافة العربية
محور الفن التشكيلي
ورقة بعنوان
الموروث والوافد (القريب والبعيد)
مدرسة الخرطوم التشكيلية- وزخارف البوابة النوبية

البروفيسور/ مصطفى عبده محمد خير

أستاذ الجماليات بجامعة النيلين- السودان

المحور الأول: مدرسة الخرطوم التشكيلية و(الوافد البعيد)

المحور الثاني: زخارف البوابة النوبية و(الوافد القريب)

المحور الثاني : تأثير الوافد القريب والوافد البعيد على

الفن التشكيلي السوداني

المقدمـــة وتجذر الحضارة السودانية في أعماق التاريخ:

- الفن ضرورة حياتية للحياة الإنسانية والبناء الحضاري، فمن خلال الإنتاج الفني والفعل الإبداعي نستطيع أن نتعرف على تاريخ الشعوب من خلال ما أنتجوه من فن إبداعي، الفنون (الزمانية والمكانية والحركية)، حيث كان الفن مع الإنسان منذ أن كان يعلو ويهبط معه وبه، فالفن أصدق أنباء التاريخ فكم من حقائق تاريخية انزوت في ظلمات التاريخ وكان الفن هو الكاشف عن تلك الحقائق المخفية، لأن الفن هو تعبير الشعوب عن نفسها لنفسها بنفسها. والفن رسالة إنسانية بين فنان مبدع ومتلقي إيجابي بينهما عمل فني مشاركاً في إنتاجه من خلال ثالوث الفن المتصاعد.

- الحضارة السودانية متجذرة في أعماق التاريخ، وإفريقيا مهد الحضارة

الإنسانية، حيث ظهرت حضارة الكائنات الشبيهة بالإنسان قبل ظهور آدم في حوض النيل، بوجود كائن (استرالوبثيكيس) عند منابع النيل، وكائن (هوموآركتيس) في أواسطه، وكائن (نايندرثال- وكروماقون) عند مصبه- في العهود البلاستوسينية الحجرية (باليوليثك وميزوليثك ونيوليثك).

وظهرت حضارة الخرطوم الحجرية تلتها حضارة الشهيناب والمجموعات الحجرية، ثم الحضارة الكوشية (كرمة ونبتة ومروي)، والممالك النوبية المسيحية (نوباتيا والمغرة وعلوة) ثم التحول إلى الإسلام والسودان الحديث.

لابد لكل حضارة عالمية أن تؤثر وتتأثر بالحضارات المجاورة والسابقة أفقياً ورأسياً من خلال الاستمداد الحضاري وحوار الحضارات على المائدة الحضارية، والانطلاق من تراثها والموروث الحضاري وتأثراً بالوافد القريب والبعيد.

الحضارة السودانية متجذرة في أعماق التاريخ منذ العهود البلاستوسينية:

1) العصر الحجري السحيق "ايوليثك- Eolithic"

2) العصر الحجري القديم "باليوثيك- Paleolithic"

3) العصر الحجري الوسيط "ميزوليثك- Mesolithic"

4) العصر الحجري الحديث "نيوليثك- Neolithic"

وقد وجدت في إفريقيا كائنات شبيهة بالإنسان قبل ظهور آدم بالشروط الأولية لوجود الإنسان كمقدمة حياتية لتذليل الأرض لآدم المستخلف في الأرض مثلها مثل الديناصورات التي وجدت على الأرض وانقرضت بعد أداء مهمتها على الأرض وفي الأرض، وقد انقرضت هذه الكائنات بعد أداء مهمتها على الأرض، وكونت حضارة غير إنسانية ليأتي الإنسان ليبني حضارته الإنسانية.

والدليل على ذلك وجود بقايا هذه الكائنات من عظام وكهوف وأدوات وهو الدليل المادي، فلا نستطيع إنكار وجود هذه الكائنات وآثارها موجودة، ولكننا ننكر صلتها بالإنسان في تطورها من القردية إلى الإنسانية.

والدليل القرآني يؤكد وجود هذه الكائنات لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة: 30. ترينا هذه الآية أن الملائكة شهدت وجود هذه الكائنات قبل آدم، وقولهم بأنها فاسدة (من يفسد فيها) دليل على أنها كائنات عاقلة وليست حيوانية فلا يُقال للحيوانات إنها فاسدة بل يقال أنها قاتلة أو مفترسة، وقولهم إنها سافكة للدماء (ويسفك الدماء) إنها ليست جنية ولا ملائكية فليست للجن ولا للملائكة دماء لتسفك، إذن هي ليست حيوانية ولا جنية ولا ملائكية ولا إنسانية، فما زال آدم بين الروح والطين، وهي كائنات خاصة لها مهامها الأرضية خلقت من الأرض وفي الأرض لتظل في الأرض.

أما الإنسان يبدأ بظهور آدم وحواء على الأرض مستخلفاً في الأرض ليعمر الأرض بالإبداع لا ليدمرها بالإفساد وسفك الدماء، وقد خلقه الله بيديه ونفخ فيه من روحه، وكل الكائنات لها أرواح إلا الروح الإنسانية هي روح خاصة بالإنسان فهي نفخة ونفحة حياتية ومعلوماتية وأداتية وإبداعية وقيمية واعتقادية، وقد خلق في أحسن صورة حيث سواه وعدله وحسنه وجمله في أحسن صورة ولم تذكر الصورة في خلق أي كائن إلا في خلق الإنسان خمسة مرات في القرآن.

وقد ظهرت هذه الكائنات على الأرض على التوالي:

كائن يسمى (استرالوبثيكس – Australopithecus) ما بين (500.000 – 250.000) ق.م وجد في جنوب أفريقيا وأواسط أفريقيا والأخدود الشرقي لأفريقيا أي عند منابع النيل حول بحيرتي (فكتوريا وتانا) منبعا النيل الأبيض

والأزرق، وهو كائن جوال لقيط، آوى في كهوف واستعمل أدوات، وقد انداح في أفريقيا.

تبع هذا الكائن كائن أرقى منه يسمى (هوموآركتيس – Homo-Erectus) ما بين (250.000 – 100.000) وجد في سنجة "أواسط السودان– الجزيرة" سكن الكهوف واستخدم الآلات الحجرية واصطاد الحيوانات والآنيات الحجرية، وقد هاجر إلى آسيا مكوناً إنسان بكين وجاوة وسومطرة.

ثم ظهرت كائنات أخرى تسمى (نايندرثال – Neanderthal) وكائن آخر يسمى (كروماقنون – Cromaqnon) في جنوب أوربا وشمال أفريقيا (100.000 – 30.000) ق.م أتى إلى هذه المناطق من دلتا النيل، وقد بنى منازل واستأنس الحيوان واكتشف النار وصنع أدوات الصيد وأبدع فنوناً جميلة وتطبيقية، حيث ظهر (الشامان– Sham-man) فلم يكن دجالاً حيث لا مال ولا متاع ولم يكن (نصاباً) فكل شيء فيه مشاع، أبرز ما فيه أنه هو الفنان الأول الذي أبدع الإبداعات الأولى، ليبدأ الإنسان الآتي حضارته الإنسانية من خلال الإبداع الرائع بما أوتي من عقل إبداعي اختص الله به الإنسان دون سائر الكائنات.

ومن ثم ظهر (الإنسان العاقل– Homo-Sapiens) بعد ظهور آدم على الأرض، وقد وجد العلماء أن هنالك حلقة مفقودة بين هذا الكائن والإنسان العاقل، فزوروا إنسان سموه إنسان بلتداون Peltdown- man وقد كشف عن هذا التزوير بعد أربعين سنة[1].

نستخلص من هذه المقدمة التاريخية أن إفريقيا هي مهد الحضارات العالمية، وإن السودان شارك بفعالية في البناء الحضاري، وأن الموقع الجغرافي يضعه في موقع استراتيجي بين إفريقيا العربية وإفريقيا الزنجية، وإبراز هوية سودانية مميزة لها خصائص زنجية وعربية ونوبية.

وعليه نقسم البحث إلى ثلاثة محاور:

المحور الأول: مدرسة الخرطوم التشكيلية والوافد البعيد في محاولتها المواءمة بين الفن الإفريقي والفن الإسلامي بأساليب غربية (وافد بعيد).

المحور الثاني: زخارف البوابة النوبية والوافد القريب ومحاولة البوابة النوبية في المواءمة بين الزخارف الإفريقية والإسلامية والنوبية (الوافد القريب).

المحور الثالث: تأثير الوافد القريب والوافد البعيد على الفن التشكيلي السوداني الحديث ومحاولة مدرسة الخرطوم التشكيلية والبوابة النوبية في إبراز فن سوداني من خلال الأصالة والمعاصرة.

المحور الأول: مدرسة الخرطوم التشكيلية والوافد البعيد:

كما رأينا في المقدمة أن السودان بموقعه الاستراتيجي شارك بفعالية في البناء الحضاري منذ العصور الحجرية البلاستوسينية بعصورها الثلاثة (باليوليثك/ ميزوليثك/ نيوليثك)، وكانت الحركة التشكيلية أبرز الفنون التي ساهم بها السودان في البناء الحضاري حتى كان العصر الحديث والسودان تحت الاستعمار الإنجليزي في الخمسينات من القرن الماضي وقد اجتازت الحركة التشكيلية في تطورها مراحل عديدة من النمو، وكان هذا مرتبطاً إلى حد كبير بتطور المجتمع السوداني- فكان الفن هو الدال على ذلك- حيث كان السودان يسعى لابتداع هويته الثقافية القومية، وهو تطور امتد منذ مرحلة الخمسينات ومع بداية تخرج أول دفعة من كلية الفنون بكلية (غردون) التذكارية، جامعة الخرطوم الحالية، قبل أن تنتقل كلية الفنون إلى المعهد الفني- جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا تحت مسمى كلية الفنون الجميلة والتطبيقية، وهي مرحلة الحراك الوطني والنضال من أجل الحرية والاستقلال، ومقاومة الاستلاب الثقافي والفكري والإبداعي الذي كان المستعمر قائماً عليه وتمثل ذلك في البحث الجاد

عن قيم جمالية تشكيلية سودانية جديدة كمشروع ثقافي يتزامن مع حركة (السودنة) في اتساقه مع الحركة التحررية فقد اكتشف الفنانون السودانيون رواد الحركة التشكيلية الحديثة، وقد أدى ذلك لظهور أول مدرسة فنية مدنية أطلق عليها الأستاذ الجامايكي (دينز وليامز) اسم (مدرسة الخرطوم التشكيلية) لما وجد فيها من خصائص متقاربة مستلهمة من الثقافة السودانية والبيئة المحلية من أعمال الفنانين في تلك المرحلة تختلف عن التيارات العربية والإفريقية التي كانت سائدة في عقدي الخمسينات والستينات من القرن الماضي في أعمال رواد هذه المدرسة وبالأخص إبراهيم الصلحي وأحمد محمد شبرين وعثمان وقيع الله (رحمه الله) وغيرهم من كان معهم ومن تبعهم وسار على خطاهم في إبراز فن سوداني أصيل بتقنية حديثة.

وإن لم يصمد هؤلاء لتشكيل جماعة فنية ملتزمة بنزعة أسلوبية أو جمالية محددة على غرار المدارس الأوربية مثل التأثرية أو التعبيرية أو التجريدية أو السيريالية إذا لم يصدروا بياناً تأسيسياً يوضح منطلقاتهم ونجد أن العديد منهم ممن اتبعوا أساليب مختلفة شكلت أجيال لاحقة من الفنانين قدموا إضافات جديدة مثل شفيق شوقي والجنيد ومبارك بلال وعبد الله عتيبي وحسين جمعان ورباح وأحمد عبد العال.

ويمكن لنا أن نقول إن أهمية مدرسة الخرطوم ليس في وضوح رؤيتها الفنية وإحكام اختياراتها الأسلوبية إنما بروزها كظاهرة وحدث محوري في الحركة الفنية وفي تطورها وتأثيرها المتواصل المستمر أظهرت تيارات جديدة ومستحدثة على نهج مدرسة الخرطوم في إبراز فن سوداني أصيل. فظهرت مدرسة الواحد، وجماعة الحديقة التشكيلية، وجماعة النيل، وجماعة أمدرمان، والكرستالية، والمدرسة الإيقاعية والبعد الميتافيزيقي والحاسة السابعة، وكل هذه المدارس المتولدة عنها أصدرت بيانات تعلن عن وجودها وميلادها لتبرز توجهاتها الفنية والفكرية مما أثرى الحركة التشكيلية في السودان.

وكانت (مدرسة الخرطوم) أولى المدارس التشكيلية تزامنت مع مدرسة (الغابة والصحراء)، لها مناهجها الإبداعية لإبراز وجه السودان الحضاري من خلال الإبداع الفني ومن خلال الأصالة والمعاصرة[2].

والوافد هنا ليس الفن الإبداعي بل هم مجموع الفنانين الذين ابتعثوا لأوربا لدراسة الفن وهم الرواد الأوائل لمدرسة الخرطوم حيث تشبعوا بالأساليب الغربية، وأرادوا إدخال هذه الأساليب والتقنية الغربية والمعالجات الفنية على الموروث الحضاري السوداني من خلال الثقافة السودانية، وهو ما نطلق عليه (الوافد البعيد) وذلك في استلهام التراث بأسلوب غربي في محاولتهم المزج بين الفن الإفريقي والفن الإسلامي في فن مدجن سوداني من خلال الوافد البعيد.

وحاولت هذه المدرسة في المواءمة بين الإفريقي والإسلامي، ولكنها فشلت في هذه المحاولة لوجود اختلافات جوهرية بين أصول الفن الإفريقي وأصول الفن الإسلامي، وعليه خرج (شبرين) بالفن الإسلامي بتحويل النطق الحروفي إلى نطق استاطيقي حيث نشعر بدفئ الفن الإسلامي وهدوء الخطوط المنسابة، كما خرج (الصلحي) بالفن الإفريقي حيث نستمع إلى دقات الطبول في لوحاته ونشتم رائحة البخور والخطوط المتداخلة، وقد اهتم (عثمان وقيع الله) بالخط العربي لتحويله إلى لوحات تجريدية رائعة.

ومازالت كلية الفنون الجميلة والتطبيقية بجامعة السودان تخرج الفنانين التشكيليين لمدة خمسين عاماً تقف وحيدة طيلة هذه المدة للحفاظ على الفن التشكيلي والإبداع السوداني حتى انضمت إليها كلية الفنون والدراما بجامعة جوبا وظهور قسم التربية الفنية بجامعة السودان وقسم التربية الفنية بجامعة النيلين (كلية التربية).

وكلية التربية بجامعة النيلين تضم قسمي التربية الرياضية والدراما، ثم قسم التربية الفنية (التشكيل) ووضع برنامج طموح للتربية الموسيقية والتربية الريفية

والتربية التقنية، لتتطور إلى صرح إبداعي لبناء (أكاديمية الفنون) بكل المقاييس الأكاديمية والإبداعية لنهوض بالفن والإبداع الفني. لتخريج أجيال صاعدة تمارس الفن والإبداع والممارسة الجمالية لبناء حضارة جمالية.

إلا أنّ (مدرسة الخرطوم التشكيلية) و(الوافد البعيد) لم تتمكن من تحقيق الغرض الأساسي من إنشائها وذلك في المواءمة بين الفن الإفريقي والفن الإسلامي، وقد فشلت في ذلك على الرغم من أن قادتها ورواداها هم فنانين عالميين أمثال (شبرين والصلحي وعثمان وقيع الله) لإبراز الهوية السودانية من تلك المواءمة باستخدام التقنية الحديثة والأسلوب الغربي (الوافد البعيد) وذلك باستخدام المنهجية الحديثة من خلال مرجعية تراثية وأصولية لغايات إبداعية؛ إلا أنها فشلت رغم هذه المحاولات الإبداعية فيما نجحت زخارف البوابة النوبية في المواءمة بين الزخرفة الإفريقية والزخرفة الإسلامية على الرغم من وجود اختلافات أساسية وجوهرية. وهو موضوعنا في المحور التالي (زخارف البوابة النوبية- والوافد القريب).

المحور الثاني: الزخارف الجدارية على البوابة النوبية والوافد القريب:

البوابة النوبية بزخارفها المشرقة كتاب حضاري تحكي عن حضارة السودان، ومسيرته الحضارية عبر التاريخ، والبوابة النوبية بزخارفها أو (نقرشاتها)- كما كان يطلقون عليها- هي أول مدرسة زخرفية للفن التشكيلي للفن السوداني الحديث، والبوابة عبارة عن سجل حضاري لفترة تاريخية امتدت من أعماق التاريخ. حيث كان الازدهار الزخرفي على البوابة ما بين عام 1920 وحتى 1964م بهجرة أهالي النوبة المصرية والسودانية (قسراً) لتغمرها مياه السد العالي للأبد! بإغراق حضارة إنسانية امتدت عبر الحقب التاريخية، سواء كان عن قصد أو بدونه.

ومن أهم إنجازات البوابة النوبية:

1) المواءمة بين الفن الإفريقي والفن الإسلامي في بوتقة واحدة.

2) تمازج الثقافات والأعراق والأجناس في وحدة إبداعية.

3) المزج بين الزنجية والعربية والنوبية في لوحة فنية.

4) عقد الصلح بين الصليب والهلال في تسامح ديني.

5) تسجيل تاريخ السودان الحضاري عبر العصور (كتاب تاريخي).

6) التآلف الفني بين الوثنية والمسيحية والإسلام، حوار الأديان جمالياً.

7) نجاح البوابة النوبية فيما فشلت فيها المدارس الفنية الحديثة والمعاصرة، في مواءمتها بين زخارف الفن الإفريقي وزخارف الفن الإسلامي.

- الفن الإبداعي عبارة عن لقاء (جمالي) بين فنان مبدع ومتلقي إيجابي، بينهما وسيط فني تحول إلى عمل فني مبدع في حضرّة جمالية، من خلال المشاركة الإيجابية للمتلقي في تقبله أو رفضه للفن المطروح، وما أنجز على البوابة النوبية يُعد إنجازاً حضارياً وعبقرياً، في مواءمة الزخارف النوبية بين الأصول الإفريقية والإسلامية، على الرغم من وجود اختلافات جوهرية بالرغم من التخالف كان التآلف وهذه سمة الفنون الأصيلة، وهكذا كانت البوابة النوبية في تآلف للمتخالف تماماً مثل الهوية السودانية المتخالفة المتآلفة، ما بين الزنجية والعربية والنوبية مكونة الهوية السودانية المتآلفة. إذ نجد أن (النخوة والشهامة والكرامة) وهي خصائل عربية تآلفت مع الخصائل الزنجية من (الحياء والشجاعة والأمانة) وتتوسط هذه الخصائل الخصيصة النوبية في (الوفاء) لتكتمل الهوية السودانية في تآلف الخصائل العربية ومع الزنجية ومع الخصيصة النوبية.

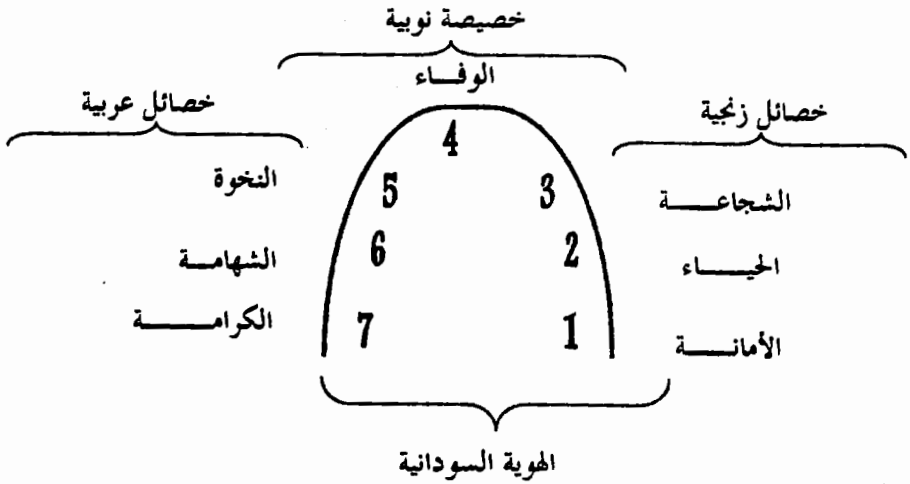

فلا بد من تخالف حتى يكون التآلف من خلال التكامل والتكافل والتداخل للتراث الأخلاقي والجمالي مع الموروث الفلوكلوري والشعبي، أدى ذلك لإنتاج فن إبداعي متآلف ومتسق ومتناغم، وقد عبر الفنان النوبي عن الهوية السودانية وتاريخه الممتد أفقياً ورأسياً.

- وللعلماء آراء مختلفة في أصل النوبة. يقولون أنهم أصل إنسان وادي النيل "كوش ومصرايم- ابني حام بن نوح"، وقيل أنهم من قبائل (الهنتوت) هبطوا من هضاب إثيوبيا، وقيل أنهم (قوقازيون)، وقيل أنهم نزحوا من (أواسط كردفان)، وقيل أنهم أقوام من (بربر) شمال إفريقيا ونزحوا للنيل، واختلطوا بسكانها، وبالعناصر الزنجية النازحة من قلب إفريقيا، المهم أنهم أول من سكن ضفاف النيل وكونوا (أول حضارة إنسانية!).

وقد أطلق العلماء عليهم عدة أسماء قديمة للأرض الواقعة جنوب أسوان. باسم (تانجسيو) بمعنى أرض الزنج، وتارة يطلقون عليهم (تاستي) أي أرض القسي، وأحياناً يميزونهم بإقليم (واوات) ويسمونهم أيضاً بـ(كاش أوكوش)[3].

ويرجع الدكتور الأب فانتيني في كتابه تاريخ المسيحية في الممالك النوبية

عن أقوال المؤرخين لقول (أرسطينوس) على أنهم أول من ذكر اسم (نوباي) وأنهم يسكنون ما بين (مروي والدبة) أما استرابون فقد قال أن (النوباي) يملكون الأرض بين مروي والشلال الأول، وقال (بلينوس) أن النوباي كانوا يملكون ضفتي النيل مركزهم جزيرة (نتوبس) وهي جزيرة (أرقو) حالياً[4].

وقد أكدت الدراسات التاريخية لقول (ريزنر) أن الجماعات النوبية تتشابه مع مثيلاتها في مصر ما قبل عهد الأسرات، ويقول محمد عوض[5] أن بلاد النوبة هي البقعة الخصبة وسط الصحراء تتعرض للعدوان من الجهات الثلاثة وهم ينتمون إلى السلالة التي ينتمي إليها الشعب المصري القديم خاصة في صعيد مصر.

نستخلص من ذلك أن الإنسان النوبي هو عنصر قديم تميز بعراقة أصله وأول من سكن على ضفاف النيل مكوناً أول حضارة عرفها التاريخ، حيث خرجت الحضارة من إفريقيا إلى العالم الخارجي عبر البوابة النوبية[6].

- الحضارة العالمية تؤثر وتتأثر بالحضارات المجاورة (الوافدة) والحضارات المتعاقبة (الموروثة) أفقياً ورأسياً، وقد أكدنا تجذر الحضارة السودانية وتمركزها على ضفاف النيل عبر العصور، ومن ثم تأثرت بالحضارات المجاورة خاصة الحضارة المصرية القديمة (الفرعونيه) والديانات الوثنية والمسيحية والإسلامية، وهي الحضارات الوافدة القريبة.

وقد دونت البوابة النوبية الحضارة السودانية على جدارياتها الزخرفية فنجد التأثيرات الوثنية والفرعونية والإفريقية والنيلية والزنجية والمسيحية والإسلامية والنوبية في لوحة جدارية واحدة بزخرفة متآلفة ومتسقة ومتناغمة.

وقد استطاعت البوابة النوبية في المواءمة بين الزخارف الإفريقية والزخارف الإسلامية على الرغم من وجود اختلافات جذرية كثيرة كيف كان ذلك؟ وهو

السؤال المهم والمحور الأساسي لهذا المبحث، في محاولتنا في الإجابة على هذا التساؤل المهم.

كان الأساس الأول للزخارف على جداريات البوابة النوبية، هو التراث النوبي الأصيل وكان التأسيس على الحضارة المحلية النابعة من الجذور التاريخية، ومن ثم توافدت عليها الحضارات مثل الحضارة الفرعونية- وهي في الأصل نوبية- وحضارات مجاورة أخرى تتابعت ووفدت على أرض النيل من الشرق والغرب، فكان التلاقي الحضاري على ضفاف النيل، ثم كانت التأثيرات الحضارية والأثر العقائدي من وثنية ومسيحية وإسلامية، فتداخلت السمات العقائدية مع التأثيرات الحضارية فكونت لوحة رائعة ومدهشة من خلال التمازج الحضاري على المائدة الحضارية.

الأثر الفرعوني:

تشابه البوابة النوبية البوابات الفرعونية التي تبدأ بمدخل واحد يفضي إلى (دهليز) مظلم لينفذ إلى فضاء داخلي، وتشابهها في استخدام العارضة المستقيم المنحوتة، ويتوسط المدخل على شكل نصف دائرة (شكل القبة) وهو رسم تحويري لقرص الشمس المجنح.

كما نجد طائر (أبو قدان) وهو طائر يكثر وضعه على البوابة النوبية، وهو طائر مقدس عند الفراعنة ويسميه المصريون (صديق الفلاح) ويسميه النوبة (امنشاكلي) بمعنى الذي يلتقط غذاءه من الماء. ونجد بعض من الحيوانات المقدسة عند الفراعنة لها مكانتها في الزخارف النوبية، أما الدائرة ذات الأطراف المتعرجة أي الدائرة وبداخلها المثلثات المتلاصقة فهي تمثل الشمس عند الشروق ويمثل الإله (آمون) و(رع) عند العطاء، أي الشمس وأشعتها المشرقة الممتدة على ألفق الأرض. استخدمت البوابة النوبية الأشكال الحيوانية على شكل رموز زخرفية وكذلك في الحضارة الفرعونية إلا أن هذه الرموز تختلف في دلالاتها الرمزية.

مقارنة بين الرموز الكوشية والفرعونية

رموز بلاد كوش		الرموز الفرعونية
الفيل	1	العجل آبيس
التمساح	2	فرس البحر (سيد اشطة)
الأصلة	3	الثعبان
الأسد	4	القط

نلاحظ أن الرموز الكوشية حيواناتها وحشية على عكس الرموز الفرعونية حيوانتها مستأنسة.

وهناك اختلافات في الأصول المعمارية للمعابد الفرعونية ومعابد بلاد كوش، وكذلك نجد الاختلافات في الأسلوب النحتي إذ نجد أن منحوتات بلاد كوش تماثيلها متحركة على عكس التماثيل الفرعونية الجامدة التي ترمز إلى البقاء والخلود والأبدية.

من أن نبع كلاً من الحضارتين الفرعونية والكوشية نبعهما واحد وهي الحضارة النوبية، إذ نجد أن تمركز الآثار الفرعونية والكوشية محصورة ما بين جنوب مصر وشمال السودان وهي أرض نوبية.

الأثر المسيحي:

اعتمدت الزخارف النوبية على (الشكل الصليبي) وهو تأثير مسيحي مع أن الشكل الصليبي هو أصل أيضاً في الزخارف الفرعونية، وكذلك في الزخارف الإسلامية، والشكل الصليبي هو رمز قديم يرمز إلى الإنسان، فإذا ما وقف الإنسان وفرد يديه ورفع رأسه يمثل شكل الصليب.

فمن أكثر الرموز صورة الميت وهو ينهض على قدميه وذراعاه ممدودتان على هيئة (صليب) دلالة على الارتفاع والسمو أكثر مما يتضمن من حزن أو ابتئاس في تمثل الجنس البشري وهو يصعد إلى أعلى نحو الحياة الصاعدة والخالدة أي (الآخرة) بعد الممات، ولا تمثله وهو يهبط إلى أسفل وإلى الموت والفناء، فالموت ليس نهاية بل بداية للانهاية وانتقال من حياة أرضية طينية إلى حياة برزخية أثيرية.

فالصليب يعني الحياة والانطلاقة والعلو أكثر مما يعني الموت والهبوط والفناء، يعني الحياة الخالدة في السماء، حياة الحب والمحبة. والصليب رمز قديم أخذته المسيحية للدلالة على صعود السيد المسيح عليه السلام إلى السماء بعد موته.

أخذت الحضارة النوبية (الصليب) في عهود المسيحية، الممالك النوبية المسيحية (نوباتيا والمغرة وعلوة) فأدخلتها في أصول رموزها وزخارفها ليمثل الصليب (العطاء والفداء والمحبة).

والزخارف المسيحية على الفخار من أغنى الزخارف في الشكل واللون والسمة الجمالية حيث تناسقت هذه الألوان مع الألوان الإفريقية الترابية آخذة بالسحنة النوبية السمراء، واللون النحاس النوبي أي (الذهبي) فأعطت للزخارف إبداعاً مشرقاً بديعاً، صفراء فاقع لونها تسر الناظرين.

الأثر الإسلامي:

بعد دخول الممالك النوبية المسيحية إلى الإسلام طوعاً واقتناعاً بعد وقوفهم ضد الجيوش العربية لمدة ستمائة عام حتى سُموا برماة الأحداق وذلك لإصابتهم حدقة العيون بسهامهم.

نلاحظ أن الكنائس لم تخرب ولم تتحول إلى مساجد، كما هو الحال في باقي البلاد المفتوحة، بل هجرت الكنائس وبقيت على حالها حتى اكتشفها الأثريون

بعد أن دفنت في الرمال بعوامل التعرية فقط، وهذا دلالة على التسامح الديني واحترام للمعتقدات الدينية واحترام للأديان وحرية الاعتقاد.

وهذه ظاهرة جديرة بالدراسة في "خروج عن دين بسلام وتقبل دين آخر باقتناع".

استفادت الزخارف النوبية من الزخارف الإسلامية خاصة من المساجد والمصاحف وألواح الخلاوى، وتلاؤم الزخارف الإسلامية المنسابة مع الزخارف الإفريقية المتقاطعة وما بين المثلث والدائرة والتقاء الزوايا المنفرجة مع الزوايا الحادة في تكوين زخرفي متآلف ومتناغم.

- هنالك تشابه بين الزخارف الإفريقية والزخارف الإسلامية وهو التشابه الموجود في كل الزخارف في الحضارات القديمة والحديثة، إلا أننا نجد أن هناك اختلافات جوهرية بين أصول الزخارف الإفريقية وأصول الزخارف الإسلامية. وقد يبدو من المستحيل التأليف بينهما، ولكن البوابة النوبية بزخارفها استطاعت أن توائم بين الزخارف الإفريقية والزخارف الإسلامية بطريقة تدعو للدهشة والتعجب.

نجد أوجه اختلافات جوهرية بين الزخرفتين مثلاً نجد أن الخطوط هي مستقيمة ومتداخلة ومتقاطعة في الإفريقية، وهي منحنية ومتراكبة ومتجاورة في الإسلامية، وتعتمد الزخارف الإفريقية على المثلثات والزوايا الحادة وتعتمد الزخارف الإسلامية على الدوائر والزوايا المنفرجة، والألوان الإفريقية هي صارخة ودافئة (العائلة الحمراء) بينما الألوان الإسلامية هادئة وباردة (العائلة الزرقاء)، والزخارف الإفريقية زقزاقية بينما الزخارف الإسلامية منسابة، والحركة في الإفريقية سريعة وخاطفة بينما في الإسلامية الحركة بطيئة وسيالة ومنزلقة، والموسيقى الإفريقية حادة وعنيفة (السلم الخماسي) بينما الموسيقى الإسلامية هادئة وهامسة (السلم السباعي)، كما نجد الأنغام والإيقاعات الإفريقية

سريعة كدقات الطبول وانفعال نفسي داخلي منكفئ للباطن بينما الأنغام والإيقاعات الإسلامية هامسة كضربات الدفوف وانفعال نفسي متطلع ومتصاعد، الفن الإسلامي ينطلق نحو المطلق أما الفن الإفريقي ينكفئ للداخل وإسقاط لانفعالات، الفن الإفريقي يحكي حكاية، أما الفن الإسلامي يروي رواية وصفاء روحي وجمال خاشع بينما الفن الإفريقي يعبر عن انفعال داخلي ممزوج بالسحر[7].

فعلى الرغم من هذه الاختلافات الجوهرية بين الزخارف الإسلامية والزخارف الإفريقية، تمكنت زخارف البوابة النوبية أن توائم بين مدلولات الزخارف المنطلقة من معتقد وثني إفريقي، واعتقاد توحيدي إسلامي. وعلى الرغم من محاولات مدرسة الخرطوم الفاشلة في هذا التآلف، وهذا يرجع إلى الموروث الثقافي مع الوافد القريب على جداريات البوابة النوبية، والوافد البعيد لإبداعات مدرسة الخرطوم التشكيلية. كما سنرى في المحور الثالث.

وهكذا حققت زخارف البوابة النوبية فيما فشلت فيها المدارس الحديثة والمعاصرة المحلية والإقليمية بل العالمية في مواءمتها بين المتناقضين.

أما في زخارف البوابة النوبية تداخلت الزخارف الإسلامية مع الدلالات الوثنية والمسيحية مكونة زخارف مدجنة حاملة بصمات الأصالة والمعاصرة من خلال زخرفة تجريدية تحكي عن أمجاد أمة حضارية. وقد تداخلت المعاني العقائدية من مجلوب ووافد وموروث في بوتقة واحدة تروي رواية وتحكي حكاية الإنسان النوبي مع (الوافد القريب).

- كاد هذا الأثر الفني أن يندثر ويختفي للأبد كما اختفت المنطقة بكاملها تحت مياه السد العالي! (كارثة السد!)[8]، ولكننا تمكنا من تسجيل هذا الأثر الحضاري الخالد بتنفيذه في مناطق عدة بالعاصمة (الخرطوم) حتى يبقى للأبد بالاستمداد الحضاري.

وقد قمت بتصميم وتنفيذ هذه الزخارف في:

1) بوابة وواجهة النادي النوبي بحي المطار- 1985م- الخرطوم.

2) منزل كامل داود بالمنشية- 1988م- الخرطوم.

3) منزل الكابتن صلاح شبكة بالمعمورة 1995م- الخرطوم.

4) منزل البروفيسور مصطفى عبده بالدباسين 1998م- الخرطوم.

5) منزل أيوب إسماعيل بالمنشية أعمال الفنان ترهاقا إسماعيل- 1988م.

وهذه محاولات لإبقاء ذلك الفن العظيم نبراساً للفنانين ليهتدوا به، وبوابة يخرجون بها نحو فن إبداعي مبدع، من خلال جماليات البوابة النوبية وإشراقات زخارفها الجدارية ككتاب حضاري لتاريخ السودان الحضاري وتآلف للمتخالف.

المحور الثالث: تأثير الوافد القريب والوافد البعيد على الفن التشكيلي السوداني:

عند مقارنتنا للوافد البعيد مع مدرسة الخرطوم التشكيلية بالوافد القريب مع البوابة النوبية وزخارفها الجدارية، نجد أن تأثير الوافد القريب هو أقرب إلى التراث الموروث، بدلالة نجاح زخارف البوابة النوبية في المواءمة بين الزخارف الإفريقية والزخارف الإسلامية، على الرغم من وجود اختلافات أساسية وجوهرية، لم تتمكن مدرسة الخرطوم من هذه المواءمة بين الفن الإفريقي والفن الإسلامي.

نرجع هذه النتيجة التي خرجنا بها، أن الوافد القريب هو الأقرب إلى الموروث الحضاري من خلال الموقع الحضاري من خلال الموقع الحضاري التاريخي (الزماني) والموقع الجغرافي (المكاني)، أما الوافد البعيد فقد كان تأثيره على الفعل الإبداعي والأسلوب التقني، وليس في الموضوع الفني المطروح أو المعالجة الإبداعية.

فكل أمة تريد أن تنهض عليها أن تنهض من خلال تراثها الحضاري، كما فعلت أوربا في نهضتها الحضارية في عصر النهضة الأوربية في القرن الخامس عشر الميلادي في إحيائها للتراث الكلاسيكي اليوناني، أي من خلال تراثهم الموروث وليس من خلال تراث غيرهم، إذن لابد لنا أن نرجع إلى تراثنا الحضاري لننطلق من خلال هذه الأرضية التراثية نحو آفاق أرحب وأجمل من الأعماق إلى الآفاق.

ومن أسباب نجاح البوابة النوبية في هذه المواءمة بين الزخارف الإفريقية والإسلامية، وفي تمكنها في التأليف بين الزخارف الوثنية والفرعونية والمسيحية والإسلامية والنوبية في بوتقة واحدة وهي:

أولاً: تميّز الزخارف النوبية في استيعاب الوافد القريب وتمكنها المتناسق في تناسق المتخالف المتآلف ليتآلف ويتناسق.

ثانياً: انسجام الفنان النوبي مع عمله الفني ومع المتلقي الإيجابي، فالفن هو انسجام بين فنان ومتلقي وبينهما عمل فني.

ثالثاً: العوامل البيئية والنفسية والجمالية.

أولاً: تميّز الزخارف النوبية في استيعاب الوافد القريب وتمكنها المتناسق في تناسق المتخالف المتآلف ليتآلف ويتناسق:

1) حققت البوابة النوبية كثير من الحقائق الجمالية في استخدام المثلثات الزقزاقية على الحائط الممتد.

2) التزاوج بين المثلثات والدوائر وتداخل الخطوط المستقيمة مع الخطوط المنحنية، وتزاوج بين الزوايا الحادة مع الزوايا المنفرجة.

3) تداخل الخطوط المتراكبة في تداخلها مع الخطوط المناسبة في وحدات مفردة وممتدة في تتابع وانسياب، فكان التناغم بين الخطوط الإفريقية المتراكبة مع الخطوط الإسلامية المنسابة.

4) الاستماع إلى الحركة المتوثبة والسريعة والخاطفة الإفريقية مع الخطوط المنزلقة السيالة الإسلامية، فكان التوافق بين الموسيقى الإفريقية الصاخبة الحادة مع الموسيقى الإسلامية الهادئة المتزنة.

5) التناغم بين الإيقاعات الإفريقية العنيفة ودقات الطبول الإفريقية الدافقة مع ضربات الدفوف الإسلامية الدافئة في إيقاع متيقظ.

6) الزخرفة عبارة عن وحدات هندسية أو قل إنها وحدات رياضية يُراد بها التفكير الرياضي لوصول إلى حقيقة لا تتعلق بمكان أو زمان فحقيقة المثلث أو المربع أو الدائرة تظل حقيقة عقلية هندسية لتصديقها للمعاني العقلية في تجردها وانطلاقها.

7) بدأت الزخارف في أول الأمر متماثلة ثم تنوعت وبدأت مفردة ثم تتابعت في تبادل موسيقي بالتفرع بخطوط متحركة وديناميكية في تعانق مستمر وتقاطع منتظم ومتقابل كأنها أخذت سمتها من الترديد والأصوات في تبادل موسيقي وصوتي بين الهمس الخافت والرنين الواضح متجاورين أو متقابلين في بحر من التجرد.

8) التعبير الفني عاطفي ودرامي من خلال انفعال نفسي وتفاعل عقلي في البحث عن الأزلية والأبدية، أي عن الحاضر الذي لا يزول من خلال لحظات آنية متلاشية على الدوام لحاضر مستمر يحمل في طياته الماضي والمستقبل.

9) تحمل الزخارف في طياتها عقائد شتى متتالية ومتوالية ومتعالية من وثنية ومسيحية وإسلامية (وافد قريب) مع الموروث الحضاري (النوبي) في مزج بين الطوطمية والتوحيدية استخداماً للعقل الظاهر والباطن من خلال (العقل الإبداعي) ذلك العقل الذي اختص الله به الإنسان دون سائر الكائنات ليبدع إبداعاته الرائعة.

10) هذه الزخارف الجدارية للبوابة النوبية توحي بالانكفاءة نحو الذات

والانطلاقة نحو المطلق واللانهائية لرؤية ما في النفس أي من الأعماق إلى الآفاق.

11) نجد في زخارف البوابة سمات سحرية وأساطير خرافية مع الاعتقاد الديني التوحيدي، وإسقاط لانفعالات من خلال الصفاء الروحي ومخاطبة للقلب والعقل لإبراز فن جمالي جلالي.

12) المواضيع على البوابة تحكي حكاية وتروي رواية في تبادل موسيقي متناغم في تماسك وانسجام في تخالف متآلف، فلابد من تخالف حتى يكون التآلف، فكل شيء من اثنين أو زوجين متخالفين ومتآلفين ومفتقرين إلى بعضهما. وهذه هي ميزة زخارف البوابة النوبية التي ألفت بين المتخالفين في (محبة) متبادلة.

- وبهذا استطاعت البوابة النوبية (التراث الموروث) مع (الوافد القريب) أن توائم بين الزخارف الإفريقية والزخارف الإسلامية وألفت بين الزخارف الوثنية والمسيحية والإسلامية والإفريقية والنوبية في بوتقة واحدة متآلفة.

ثانياً: انسجام الفنان النوبي المبدع مع المتلقي النوبي الإيجابي بينهما عمل فني جمالي:

والفن رسالة إنسانية وهي رسالة جمالية يرسلها فنان ويتلقاها متلقي وناقد للفن بقبوله أو رفضه فيتصاعد الفن ما بين الفنان والمتلقي وما بينهما من عمل فني من خلال ثالوث الفن المتصاعد (فنان ومتلقي وعمل فني).

ثالثاً: العوامل التي ساعدت في إخراج هذا العمل الفني الرائع:

1) الهدوء والاستقرار النفسي للفرد والجماعة والحياة الجماعية المتكافلة.

2) الاطمئنان على الأرزاق (النخيل).

3) قلة الجرائم وتكاد تنعدم الجريمة- يوجد سجن واحد بلا سجناء ومستشفى بدون مرضى.

4) متطلبات الحياة بسيطة وهي متوفرة من المزارع والحدائق.

5) وجود الآثار المنتشرة بين المنازل أوجد وعي تاريخي وحضاري.

6) غياب الرجال بالاغتراب أعطى للنساء شخصية اعتبارية فتحملن المسؤولية في التربية والزراعة وممارسة الفنون الجميلة والتطبيقية.

7) الدخل الثابت من محصول النخيل والزراعة والمغتربين وتحويلاتهم المالية.

8) الحياة الأسرية المتماسكة والتمسك بالتقاليد النوبية والموروث الحضاري.

9) المسطبة الخارجية والصحون المعلقة كزخرفة تومئ بالكرم والضيافة.

10) فنون النساء والزخرفة الداخلية كانت من عند النساء أولاً ومن ثم زخارف خارجية للرجال (البوابة الخارجية).

11) استمرار التقاليد المتوارثة ومزجها بالجديد المستحدث بدون حرج.

12) الطرب البريء وليالي الأنس والأفراح والأغاني المستوحاة.

13) تزويد القصص والحكايات وتأكيد الإرث الحضاري مع الوافد القريب.

14) البيئة المناسبة للإبداع- الجو المناسب المعتدل بدون كوارث طبيعية.

15) الحياة الصحيحة والصحة النفسية الممتازة.

16) الانفتاح على الجديد مع التمسك بالقديم (الموروث والوافد القريب).

17) الهوية السودانية المميزة (زنجية عربية نوبية) تلاقح حضاري.

18) عبقرية المكان والعطاء المستمر والنيل المنساب والطبيعة الرحبة الخلابة.

19) الأخذ بالمنهجية والتقنية الحديثة من خلال مرجعية تراثية لغايات إبداعية.

20) اتساق الإنسان مع الإيقاع الزماني المتغير والإيقاع المكاني المتجدد من خلال إبداعاته المتطورة بالتتالي والتوالي والتعالي.

أولاً: الهـــوامش:

1) انظر مقالنا في مؤتمر كلية دار العلوم- جامعة القاهرة 2008م، وكتاب البدائية إشيلي مونتاغيو- الكويت.

2) معايشة الفنانين التشكيليين السودانيين بكلية الفنون الجميلة والتطبيقية واتحاد الفنانين ومعارضهم الفنية.

3) ثروت عكاشة، إنسان العصر يتوج رمسيس، صـــ(7).

4) الأب الدكتور فانتيني- تاريخ المسيحية في الممالك النوبية.

5) محمد عوض- السودان الشمالي- صـــ290.

6) نجد أن بعض من المؤرخين والكتاب يقولون أن النوبة هي البوابة الحضارية التي دخلت من خلالها الحضارة إلى إفريقيا مثلاً في كتاب Nubia Corridor to Africa، ولكننا نقول أن النوبة هي البوابة الحضارية من إفريقيا إلى العالم.

7) ارجع لمقالنا عن جماليات البوابة النوبية- مقال محكم بمجلة الدراسات الإفريقية- جامعة إفريقيا العالمية، 2004م.

8) ارجع لمقالنا عن (كارثة النيل والسد العالي) في مؤتمر النيل عام 2002م قاعة الصداقة بالخرطوم 2000م.

ثانياً: المرجعية الأساسية لهذا البحث في المعايشة الحياتية فكرياً وإبداعياً والمشاركة

الفنية في إبداع البوابات النوبية والأعمال التراثية الشفاهية، ومعايشة الفنانين التشكيليين كعضو ورئيس اللجنة العشرينية ورئيس اتحاد الخزافين، وفي تأسيس

المدرسة الإيقاعية البعد الميتافيزيقي- الحاسة السابعة.

ثالثاً: المراجع العربية:

1) أحمد علي حاكم: الزخارف المعمارية وتطورها في منطقة حلفا.

2) حسن الفاتح قريب الله: السودان دار الهجرتين.

3) نجم الدين شريف: تاريخ السودان وآثاره.

4) محمد عوض: السودان الشمالي.

5) مصطفى عبده: جماليات البوابة النوبية.

6) مصطفى عبده: المدرسة الإيقاعية- البعد الميتافيزيقي- الحاسة السابعة.

7) الأب فانتيني: تاريخ المسيحية في الممالك النوبية.

8) ثروت عكاشة: إنسان العصر يتوج رمسيس.

رابعاً: المراجع الإنجليزية:

1) The Dictionary of Egyptian Civilization- Rosener.

2) House Decoration in Nubia- Mauian Wangal.

3) Nubia Corridor to Africs- William Adams.

4) Sudan Civilization- Rayah.

5) The Arcloeclogical of Nubia- Resisnen.